ودهم خداع ودينهم نفاق

قال يمدحه وقد أمر له بفرس دهماء وجارية:

[الوافر]

أَيَـــدْرِي الـــرَّبْـــعُ أَيَّ دَمٍ أَرَاقَـــا
وَأَيَّ قُـلـوبِ هَـذَا الـرَّكْـبِ شَـاقَـا[١]
لَـنَـا وَلأَهْـلِـهِ أَبَـداً قُـلـوبٌ
تَـلَاقَـى فـي جُـسُـومٍ مَـا تَـلَاقَـى[٢]
وَمَـا عَـفَـتِ الـرِّيَـاحُ لَـهُ مَـحَـلّاً
عَـفَـاهُ مَـنْ حَـدَا بِـهِـمِ وَسَـاقَـا[٣]
فَـلَـيْـتَ هَـوَى الأَحِـبَّـةِ كَـانَ عَـدْلاً
فَـحَـمَّـلَ كُـلَّ قَـلْـبٍ مَـا أَطَـاقَـا[٤]

= اتّفق له، فإن الفقر لن يستقرّ في دياره، لأنه قادر على تحصيل المال بسيفه، وكلّما أنفق مالاً حصّل أضعافه بسيفه فأمن الغرق في بحر العوز.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. أراق: سفك. الركب: جماعة الراحلين. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. لقد وقف على طلل، إنها بقايا الربع حيث تعرّف إلى مالكة قلبه، وكان الهجر والفراق، وشاءت الظروف أن يمرّ الشاعر بتلك الديار التي خلت من ساكنيها، فإذا بالشوق يُحيي ذكريات حلوة مضت، مما فتّح جروحات كانت قد اندملت، فإذا بدماء قلبه المشتاق تتدفّق، ولقد سفكتها حبيبته.

(٢) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٧. لغة القلوب المحبّة تتلاقى على الودّ والإخلاص؛ ففي قلبي الحبيبين مشاعر من الحبّ الفياض ولكنهما لا يلتقيان؛ وهذا يُسبب ألماً للشاعر.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٨٤. عفت: محت. يعزو الشاعر ما ألمّ بتلك الديار من تغيّر معالمها، لم تسببه الرياح التي عادة ما تبدّل معالم الديار، ولكن المسبب الحقيقي أن الحداة آذنوا بالرحيل، فإذا بتلك الديار يلفها شيء من الوحشة والسكون الحزين.

(٤) يتمنّى الشاعر لو أن الحبّ كان مُنصفاً، فقد جار عليه وحمّله فوق ما يُطيق، فقلبه ينوء بحمل ثقيل، فقد ملك عليه الحبّ وجدانه.

نَـظَـرْتُ إِلَـيْـهِـم وَالْـعَـيْـنُ شَـكْـرَى
فَـصَـارَتْ كُـلُّـهَـا لِـلـدَّمْـعِ مَـاقَـا[١]
وَقَـدْ أَخَـذَ الـتَّـمَـامَ الْـبَـدْرُ فِـيـهِـمْ
وَأَعْـطَـانِـي مِـنَ الـسَّـقَـمِ الـمُـحَـاقَـا[٢]
وَبَـيْـنَ الْـفَـرْعِ وَالْـقَـدَمَـيْـنِ نُـورٌ
يَـقُـودُ بِـلَا أَزِمَّـتِـهَـا الـنِّـيَـاقَـا[٣]
وَطَـرْفٌ إِنْ سَـقَـى الْـعُـشَّـاقَ كَـأْسـاً
بِـهَـا نَـقْـصٌ سَـقَـانِـيـهَـا دِهَـاقَـا[٤]
وَخَـصْـرٌ تَـثْـبُـتُ الأَبْـصَـارُ فِـيـهِ
كَـأَنَّ عَـلَـيْـهِ مِـنْ حَـدَقٍ نِـطَـاقَـا[٥]

---

(١) شكرى: مليء بالدموع. المآق: طرف العين ممّا يلي الأنف. لقد عادت الذكريات بالشاعر إلى الوراء يوم رحيل الأحبّة؛ إنه يستظل نخلة في منعطف الطريق وينظر إلى الموكب وهو على وشك الرحيل، وهو لا يقدر على تغيير مجريات الأمور، فالأمر ليس بيده والأقدار تسوق الأحداث، وفي هذه الحالة ليس لديه إلّا الاستسلام للمصير والبكاء الذي ينحدر على خديه، حتى لقد غطّى الدمع مآقيه.

(٢) المحاق: ما تبقى من القمر في آخر الشهر القمري. التمام: البدر يوم اكتماله. لقد حملت حبيبة الشاعر معها الإشراق والضياء لجمال طلعتها، ولم تبق للشاعر سوى المحاق الذي يعني الضعف والمرض في نهاية الشهر القمري.

(٣) الفرع: الشعر. الأزمة، الواحد زمام: الرسن تُقاربه الدَّابة. يصف الشاعر أثر حبيبته في الظاعنين؛ إنها نور يُسيّر النياق بلا استعمال أزمّتها، فشعرها مشعّ حتى قدماها كذلك، فوجهها إنه ضياء قمر يهتدي بنوره الموكب، فإذا بظلمة الليل تنقشع عن جمال حبيبة الشاعر.

(٤) دهاق: ممتلئ. يتغزّل الشاعر بعيني حبيبته إنهما ساحرتان تسقيان العاشقين كأساً ناقصة، بينما يستقي الشاعر من عينيها كأساً مترعة، ممَّا يجعله أكثر العشّاق عشقاً لها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. إنها ذات خصر نحيل ينسجم مع جسدها، فإذا بعيون عشّاقها تتسمّر به إعجاباً وتحيطه من كلّ جانب فيبدو كالنطاق يلفّها من كلّ جانب.

سَلِي عَنْ سِيرَتِي فَرَسِي وَسَيْفِي
وَرُمْحِي وَالْهَمَلَّعَةَ الدِّفَاقَا[١]
تَرَكْنَا مِنْ وَرَاءِ الْعِيسِ نَجْداً
وَنَكَّبْنَا السَّمَاوَةَ وَالْعِرَاقَا[٢]
فَمَا زَالَتْ تَرَى وَاللَّيْلُ دَاجٍ
لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ ائْتِلَاقَا[٣]
أَدِلَّتُهَا رِيَاحُ الْمِسْكِ مِنْهُ
إِذَا فَتَحَتْ مَنَاخِرَهَا ٱنْتِشَاقَا[٤]
أَبَاحَكِ أَيُّهَا الْوَحْشُ الْأَعَادِي
فَلِمْ تَتَعَرَّضِينَ لَهُ الرِّفَاقَا[٥]
وَلَوْ تَبَّعْتِ مَا طَرَحَتْ قَنَاهُ
لَكَفَّكِ عَنْ رَذَايَانَا وَعَاقَا[٦]

(١) الهملعة: الناقة السريعة. الدفاق: المتدفقة في سيرها. يُخاطب الشاعر حبيبته ليُثير إعجابها، إنه مثال المحارب الشجاع، يسير وحيداً في المفاوز والصحاري، ممتطياً حصانه يندفع بسرعة عظيمة، وسلاحه رمح وسيف وتصحبه ناقة تندفق مسرعة إلى جانبه.

(٢) العيس: الإبل البيضاء. نكبنا: ملنا عن. السماوة: بادية تقع بين العراق والشام. يصف الشاعر رحلته إلى ممدوحه، فقد ترك نجداً خلفه ومرّ ببادية السماوة وطريق العراق قاصداً حلب موطن الممدوح.

(٣) و (٤) الليل الداجي: المظلم. الائتلاق: التوهّج. يصف الشاعر سير العيس في عتمة الليل الشديدة الظلمة، ولكنها تستهدي بشعاع وضّاء جميل، إنه وجه سيف الدولة، فإذا بها تنهب الأرض لإدراك ذلك الضياء، وتنعم بالمسك طيباً ينبعث من أردافه فتستنشق عبيراً يملأ خياشيمها ويحدّد وجهة سيرها.

(٥) يُخاطب الشاعر الوحوش الضارية، وقد اعترضت طريقه، فإذا به يُذكّرها بفضائل ممدوحه عليها، إنه وفّر لها الطعام بكثرة لكثرة ما قتل من الأعداء المناوئين والحاقدين الذين يخفرون ذمّته.

(٦) القنا: الرماح، الرذايا، الواحدة رذية: الناقة المهزولة لكثرة السير. ويُردف الشاعر =

وَلَـــوْ سِـــرْنَـــا إِلَـــيْـــهِ فِـــي طَـــرِيـــقٍ
مِـنَ الـنِّـيـرَانِ لَـمْ نَـخَـفِ احْـتِـرَاقَـا[١]
إِمَـــامٌ لِـــلأَئِـــمَّـــةِ مِـــنْ قُـــرَيْـــشٍ
إِلَـــى مَـــنْ يَـتَّـقُـونَ لَـهُ شِـقَـاقَـا[٢]
يَـكُـونُ لَـهُـمْ إِذَا غَـضِـبُـوا حُـسَـامـاً
وَلِـلْـهَـيْـجَـاءِ حِـيـنَ تَـقُـومُ سَـاقَـا[٣]
فَـلَا تَـسْـتَـنْـكِـرَنَّ لَـهُ ابْـتِـسَـامـاً
إِذَا فَـهِـقَ الـمَـكَـرُّ دَمـاً وَضَـاقَـا[٤]
فَـقَـدْ ضَـمِـنَـتْ لَـهُ الـمُـهَـجَ الْـعَـوَالِـي
وَحَـمَّـلَ هِـمَّـهُ الْـخَـيْـلَ الْـعِـتَـاقَـا[٥]
إِذَا أُنْـــعِـــلْـــنَ فِـــي آثَـــارِ قَـــوْمٍ
وَإِنْ بَـعُـدُوا جَـعَـلْـنَـهُـمُ طِـرَاقَـا[٦]

= كلامه مخاطباً تلك الوحوش أنها لو تتبّعت ما طرحت رماحه من القتلى في الأرض لكفاها ذلك ومنعها عن ملاحقة مطايا الشاعر ولاكتفت بما يرميه لها من ضحاياه.

(١) ولشدّة سطوة الممدوح ينعدم الخوف من قلوب قاصديه؛ لذا فلو أن الشاعر خاض طريقاً محفوفاً بالأخطار، والنيران تستعرّ فيه لعبره ولم يتطرّق الفزع إلى قلبه لإيمانه بأن النيران تخاف سطوته.

(٢) و (٣) يمدح الشاعر سيف الدولة بأنه إمام لبني العباس، خلفاء بغداد من قريش، إنه يقطع دابر من يُناوئهم، فهو قادر وقويّ، وهم يُقدّرونه ويرفعون من مكانته، فبه يُقاتلون، وهو سيفهم به يبطشون بأعدائهم إذا غضبوا، وإذا دارت رحى الحرب كان بمثابة ساقها لا غناء عن الاستعانة به في الملمات الصعبة.

(٤) و (٥) الفهق: الامتلاء. المكرّ: ساحة الحرب. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه واثق بقوّته فالنصر حليفه، لذا فإنه يُقاتل والبسمة تعلو ثغره، فقلبه لا يعرف الخوف، ومهما كان أعداؤه أقوياء فإنهم طعم لسيفه مهما تكاثروا عليه وضاقت مجالات المصاولة، فدماؤهم تغطّي سلاحه، وخيوله العتاق الكريمة قد ضمنت أرواحهم، وقتال القوم لا يُكلّفه مالاً لذا فهو يبتسم باستمرار.

(٦) إنعال الخيل: تصفيح أيديها بحدوات الحديد. يتحدّث الشاعر عن أفعال تلك الخيول =

وَإِنْ نَـقَـعَ الـصَّـرِيـخُ إِلَـى مَـكَـانٍ
نَـصَـبْـنَ لَـهُ مُـؤَلَّـلَـةً دِقَـاقَـا[١]
فَـكَـانَ الـطَّـعْـنُ بَـيْـنَـهُـمَـا جَـوَابـاً
وَكَـانَ الـلَّـبْـثُ بَـيْـنَـهُـمَـا فُـوَاقَـا[٢]
مُـلَاقِـيَـةً نَـوَاصِـيـهَـا الـمَـنَـايَـا
مُـعَـوَّدَةً فَـوَارِسُـهَـا الـعِـنَـاقَـا[٣]
تَـبِـيـتُ رِمَـاحُـهُ فَـوْقَ الْـهَـوَادِي
وَقَـدْ ضَـرَبَ الْـعَـجَـاجُ لَـهَـا رِوَاقَـا[٤]
تَـمِـيـلُ كَـأَنَّ فِـي الْأَبْـطَـالِ خَـمْـراً
عُـلِـلْـنَ بِـهَـا ٱصْـطِـبَـاحـاً وَاغْـتِـبَـاقَـا[٥]

= الكريمة في حال ملاحقة سيف الدولة لأعدائه؛ إنها تدوسهم وهم معفرون بالتراب، فإذا بها تنتعل بلحومهم ودمائهم وإن طال بعدهم، فلا بدّ من إدراكهم.

(١) و (٢) نقع: رفع صوته. الصريخ: المستنجد. المؤلّلة: المحدّدة يقصد بذلك آذان الخيول. إنها خيول مُدرّبة على سرعة الاستجابة، فإذا سمعت المستنجدين طلباً للمساعدة نصبت آذانها المرهفة السمع، فقد اعتادت على تلبية الدعوة وإغاثة الملهوف، ولو لم تكن الدعوة إليها للبّت دون تردّد نداء الاستغاثة بسرعة عجيبة وذلك بمقدار فواق ناقة أي مقدار ما بين الحلبتين، فإذا بالخيل تخوض غمار حرب بين جند الأمير والمغيرين.

(٣) النواصي، الواحدة ناصية: مقدمة شعر الرأس. المنايا: الموت. العناق: معانقة الأبطال في الحرب. تتلاحق الصور بسرعة عجيبة؛ سرعان ما يصل الأبطال ويكون ضرب السيوف وطعن بالرماح والخيول تواجه رماح الأعداء وتُحسن المناورة فتتلافى طعانهم، وسرعان ما تنكشف المعركة عن انتصار جند سيف الدولة الذين يُعانقون بعضهم بعضاً فرحين بسلامتهم من أي أذًى، فرحين بانتصارهم.

(٤) الهوادي: يقصد بذلك أعناق الخيل. العجاج: الغبار. إنه في حال استعداد دائماً، لذا فرماحه معروضة فوق أعناق خيوله، وهو يتّخذ من ظلمة الليل ستاراً ومن الغبار المتصاعد في جوّ المعركة ليفاجئ عدوّه، وذلك من شدّة حذره.

(٥) العلل: الشرب مرة بعد مرة. الاصطباح والاغتباق: الشرب صباحاً ومساءً. يصف =

تَـعَـجَّـبَـتِ الـمُـدَامُ وَقَـدْ حَـسَـاهَـا
فَـلَـمْ يَـسْـكَـرْ وَجَـادَ فَـمـا أَفَـاقَـا[١]
أَقَـامَ الـشِّـعْـرُ يَـنْـتَـظِـرُ الْـعَـطَـايَـا
فَـلَـمَّـا فَـاقَـتِ الْأَمْـطَـارَ فَـاقَـا[٢]
وَزَنَّـا قِـيـمَـةَ الـدَّهْـمَـاءِ مِـنْـهُ
وَوَفَّـيْـنَـا الْـقِـيَـانَ بِـهِ الـصَّـدَاقَـا[٣]
وَحَـاشَـا لارْتِـيَـاحِـكَ أن يُـبَـارَى
وَلِـلْـكَـرَمِ الَّـذِي لَـكَ أنْ يُـبَـاقَـى[٤]
وَلَـكِـنَّـا نُـدَاعِـبُ مِـنْـكَ قَـرْمـاً
تَـرَاجَـعَـتِ الْـقُـرُومُ لَـهُ حِـقَـاقَـا[٥]

= الشاعر حالة تلك الرماح التي تعبّ من دماء الأعداء في كلّ مساء وصباح، فإذا بها تتمايل سكرى بتلك الدماء فضلاً عن ليونتها. ويتبيّن أن سيف الدولة كان دائم الاستعداد والإغارة على أعدائه ليل نهار.

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٦٠. المدام: من أسماء الخمرة. حساها: شربها. لقد داخل العجب والدهشة الخمرة من سيف الدولة الذي اعتاد شربها فلم تؤثر به، فعقله راسخ ثابت قوي، وهو دائم السكر لجوده؛ فتلك عادة أصيلة فيه.

(٢) لقد كان الشعراء يقصدون الممدوح، فاستجاب لرغبتهم فدرّ عليهم نعمه وعطاياه، فإذا بالشعر يزهو ويزدهر في رحابه ويكثر ممدوحوه.

(٣) الدهماء: يقصد الفرس الأسود. القيان، الواحدة قينة: الجارية المغنية. الصداق: مهر المرأة عند الزواج. ينوّه الشاعر بعطاء سيف الدولة، فقد أنعم عليه بفرس سوداء وقينة، فكان أن مدحه الشاعر مقابل ذلك شاكراً له صنيعه.

(٤) حاشا: تفيد الاستثناء والاستبعاد. الارتياح: تحرّك قريحته. يُبارى: يُجارى. يباقى: يُغالب في البقاء. يسمو الشاعر بأريحية ممدوحه؛ فكرمه لا يُقاس بالشعر، وجوده يفوق جود سواه، لذا فجوده وكرمه بفضل ما يُنشد من شعر أبقى وأدوم من شعر الشعراء، ولو رجعنا إلى حقيقة لوجدنا أن الشعر أدوم وأبقى، بدليل أننا لا نزال نقرأه وقد مضت مئات السنين على أصحابه.

(٥) القرم من الجمال: الفحل، الحقاق، الواحدة: حِقَّة من النوق: التي دخلت في السنة =

فَـتًـى لَا تَـسْـلُـبُ الْـقَـتْـلَـى يَـدَاهُ
وَيَـسْـلُـبُ عَـفْـوُهُ الْأَسْـرَى الْـوِثَـاقَـا[١]
وَلَـمْ تَـأْتِ ٱلْـجَـمِـيـلَ إِلَـيَّ سَـهْـوا
وَلَـمْ أَظْـفَـرْ بِـهِ مِـنْـكَ ٱسْـتِـرَاقَـا[٢]
فَـأَبْـلِـغْ حَـاسِـدِيَّ عَـلَـيْـكَ أَنِّـي
كَـبَـا بَـرْقٌ يُـحَـاوِلُ بِـي لَـحَـاقَـا[٣]
وَهَـلْ تُـغْـنِـي الـرَّسَـائِـلُ فِـي عَـدُوٍّ
إِذَا مَـا لَـمْ يَـكُـنَّ ظُـبًـى رِقَـاقَـا؟![٤]
إِذَا مَـا الـنَّـاسُ جَـرَّبَـهُـمْ لَـبِـيـبٌ
فَـإِنِّـي قَـدْ أَكَـلْـتُـهُـمُ وَذَاقَـا[٥]
فَـلَـمْ أَرَ وُدَّهُـمْ إِلَّا خِـدَاعـاً
وَلَـمْ أَرَ دِيـنَـهُـمْ إِلَّا نِـفَـاقَـا[٦]

= الرابعة من عمرها. يتصاغر الشاعر أمام ممدوحه، فممدوحه بمثابة الفحل الكريم القوي، بينما يبدو الشاعر وما حصل عليه من عطايا كحقة مقابل ذلك الفحل.

(١) لقد أدرك سيف الدولة سموّ الأخلاق؛ إنه لا يسلب قتلاه ما عليهم ترفعاً عن صغائر كهذه، بل إنه يصل به أن يعفو عن أسراه فيفك قيودهم بيديه ويُعيد لهم حريتهم وكرامتهم، فيُخلي سبيلهم.

(٢) إنها معادلة وتبادل مصالح، فقد جاد سيف الدولة، وهو بوعي كامل، لا غفلة فيه؛ وتلك طبيعته وعادته في حياته، كما أن الشاعر لم يسرق ما حصل عليه، لقد أشاد بصاحب تلك المكرمة فاستحقّ التكريم والمديح.

(٣) يطلب الشاعر من ممدوحه أن ينقل رسالته إلى حاسديه في سيف الدولة أنهم لن يقدروا على اللحاق به، فقد كانت مباراة بينه وبين البرق، فرغم سرعته الفائقة فقد تفوّق عليه، ولم يستطع اللحاق، وبالتالي فإنهم لن يبلغوا شأوه ولن يتغلّبوا عليه.

(٤) الظبى، الواحدة ظبة: حدّ السيف. وما يُصوّر حنق الشاعر وغضبه أن الرسالة لا تسدّ رمقه بل يشفي غليله سيوف تفتك بحاسديه ليرتاح منهم.

(٥) و (٦) اللبيب: العاقل الفطن. يعبّر الشاعر عن معرفة بالبشر؛ فاللبيب يعرف أحوالهم ويُقاربها عن كثب؛ إنه يتذوّق ودّهم، ولكن الشاعر أكل ما لديهم فعرف طعم الأسى =

يُـقَـصِّـرُ عَـنْ يَـمـيـنِـكَ كُـلُّ بَـحْـرٍ
وَعَـمَّـا لَـمْ تُـلِـقْـهُ مَـا أَلَاقَـا[١]
وَلَـوْلَا قُـدْرَةُ ٱلْـخَـلَّاقِ قُـلْـنَـا
أَعَـمْـداً كَـانَ خَـلْـقُـكَ أَمْ وِفَـاقَـا[٢]
فَـلَا حَـطَّـتْ لَـكَ الْـهَـيْـجَـاءُ سَـرْجـاً
وَلَا ذَاقَـتْ لَـكَ الـدُّنْـيَـا فِـرَاقَـا[٣]

أراه غباري ثم قال له الحق

وقال يمدح سيف الدولة ويذكر الفداء الذي طلبه رسول ملك الروم وكتابه إليه :
[الطويل]

لِـعَـيْـنَـيْـكِ مَـا يَـلْـقَـى الْـفُـؤَادُ وَمَـا لَـقِـي
وَلِـلْـحُـبِّ مَـا لَـمْ يَـبْـقَ مِـنِّـي وَمَـا بَـقِـي[٤]

= والغدر والكفران، فقد ظهر له زيفهم، فودّهم خداع وغش، حتى دينهم بمظهره نفاق مغلّف بممارسات فارغة من مضمون الإيمان الصحيح.

(١) يفضل الشاعر ممدوحه، فيمناه تقطر كرماً لا يُساويه كل ما تُقدّمه البحار من عطاء، لذا فهو أكرم منها، وفي المقابل ما يبقيه في خزائنه رغم كثرته، فهو أقل ممَّا ينفقه؛ وذلك سرّ عظمته.

(٢) إن في الأمر سرًّا حمل الشاعر ليتساءل عن سبب عظمة ممدوحه، فإذا به يردّ الأمر إلى الخالق العظيم سبحانه وتعالى، إنه يخلق من يشاء كما يشاء، فهل كان الأمر عمداً أم أنها المصادفة والأقدار التي بعثت سيف الدولة في ظروف كانت الأمة بحاجة لمثله؟

(٣) الهيجاء: الحرب. يدعو الشاعر بطول العمر لممدوحه آملاً أن يبقى بطل الساح يصول ويجول ممتطياً حصانه وأن يحيا في هذه الدنيا فلا يُفارقها.

(٤) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. لغة العيون تكشف ما في القلوب رسائل لا يفهمها إلّا من يستطيع قراءتها ويفسّر ألغازها. لقد عزف الشاعر عن النساء، ولكن حدثاً مفاجئاً جعله يعدل عن ذلك؛ إنها عيون ساحرة ترمي سهامها بلا رحمة، فتُصيب من تُصيب في مقاتله، فيستسلم بلا مقاومة، وإذا لم يجد تجاوباً كان البلاء، فنحول جسم، وشرود عقل ودموع وبكاء.